

الحياة العلمية في مصر والشام

٥٢١ - ٦٤٨ هـ (١١٢٧ - ١٢٥٠ م)

في سنة ٥٢١ هـ ، تولى عماد الدين زنكى بن آق سنقر إمارة الموصل من قبل السلطان السلجوقي الذى كانت له الكلمة العليا فى البلاد التى تعترف بخلافة العباسيين . وبدأت بولاية زنكى على الموصل حركة إحياء سياسى واجتماعى وثقافى فى مناطق الجزيرة العراقية والشام التى كانت حتى ذلك التاريخ مفككة الأوصال مشتتة الكلمة . ثم لم تلبث هذه الحركة الإحيائية أن انتقلت إلى مصر عقب سقوط الدولة الفاطمية ، سنة ٥٦٤ هـ ، أمام جيوش السلطان نور الدين محمود بن زنكى . واستمرت هذه الحركة على نشاطها فى البلدين المتحددين منذ ذلك التاريخ حتى سقوط الدولة الأيوبية فى مصر ، سنة ٦٤٨ هـ ، لتخلفها دولة المماليك البحرية التى بدأت عهداً جديداً من الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية يختلف فى بعض مظاهره عن العصر الأيوبي ويتفق معه فى بعض آخر .

ومن ثمَّ كان تحديد بحثنا عن الحياة العلمية فى مصر والشام مرتبطاً بهذين التاريخين : ٥٢١ - ٦٤٨ هـ ، أى شاملاً للعصر الذى يبدأ بولاية عماد الدين زنكى إمارة الموصل وينتهى بسقوط للدولة الأيوبية فى مصر .

وقد شهدت هذه الحقبة التى نتحدث عنها تغيرات رئيسية هامة ، كان عن

بينها سلسلة الحروب التي دارت رحاها — في معظم مراحلها — بمصر والشام، وهي الحروب التي عرفت في التاريخ باسم الحروب الصليبية . كما كان منها تلك الانقلابات السياسية والثقافية التي شهدتها هاتان المنطقتان نتيجة لتدهور سلطان الفاطميين الاسماعيليين وانتعاش النفوذ السنّي في ظل حكم السلاجقة وأتباعهم بالشام ، ثم في ظل الأيوبيين في مصر والشام جميعاً .

وقد جاهد زنكي منذ تولى شئون الموصل لوضع حد للخلافات السياسية الإقطاعية التي مزقت شمل الشام والجزيرة العراقية ، فنجح بحروبه المتتابعة في إيجاد نوع من الاتحاد شمل جزءاً كبيراً من هذه البلاد وأخضعها لسلطانه : ثم جاء بعده ابنه نور الدين محمود ، (٥٤١ هـ) ، فبدأ من حيث انتهى أبوه ، ونجح في توحيد الشام والجزيرة جميعاً باستثناء المناطق التي كانت في أيدي الصليبيين^(١) ، ثم مدّ نفوذه إلى مصر حيث نجح قائده أسد الدين شيركوه ، عم صلاح الدين الأيوبي ، بعد محاولات ثلاث ، في إخضاعها لسلطانه . وفي مصر ، بعد وفاة شيركوه ، ظهر صلاح الدين وزيراً للعاضد الخليفة الفاطمي الشيعي ، وقائداً لجيوش صاحب الشام نور الدين محمود السلطان السنّي . ثم لم تلبث الخلافة الفاطمية أن انهارت ، فزال بانهارها آخر ظل للنشاط الاسماعيلي عن مصر ، واصطبغت البلاد منذئذ بالصبغة السنّية في مذهبها الديني وفي نظامها السياسي .

لكن الوحدة التي نجح هؤلاء الرجال الثلاثة في تحقيقها بين مصر والشام لم تسلم من الأخطار التي تهددتها في شكل الحملات الصليبية المتتابعة لتأكيد سلطان أوروبياً على الأراضي المقدسة ، وللقضاء على قوة مصر التي حملت العبء الأكبر في مقاومة هذه الحملات الصليبية . وكان لاتحاد القوى في مصر

(١) كانت إمارة الموصل وما تبعها خاضعة لسيف الدين ذي القرنين زنكي ولكن سياسته العامة ، وسياسة من جاء بعده ، كانت متفقة تمام الاتفاق مع سياسة نور الدين ومتعاونة معها .

والشام ، برغم بعض المنازعات الداخلية ، فضل كبير في فشل هذه الحملات التي لم تحقق من أهدافها ، عندئذ ، إلا القليل .

* * *

وفي حديثنا عن الحياة العلمية في هذه الحقبة يحسن أن نبدأ بما ذكره ابن جبير في « الرحلة » من أنه رأى في دمشق وحدها ، أثناء زيارته لها ، نحو عشرين مدرسة ، كما رأى في حلب خمس مدارس^(١) . ويذكر ابن الشحنة في كتابه « الدر المنتخب » من مدارس حلب عدداً يتجاوز الخمسين ، أنشئت جميعاً بين سنتي ٥١٦ ، ٦٦٥ ؛ ودمشق وحلب الغاصمتان الرئيسيتان للشام في هذه الحقبة من التاريخ . وهذان المثلان يكفيان في الدلالة على مدى الاهتمام بالإحياء العلمي في هذا العصر الذي تتحدث عنه ، غير أنه يحسن أن نضيف إلى هذا أن عدداً كبيراً من الزوايا والمساجد كان يؤدي وظيفة المدرسة في هذا العصر على نطاق واسع أيضاً^(٢) .

وقد أنشئت أول مدرسة في دمشق في عهد الأتابك « طغتكين » الذي تولى إمارتها سنة ٤٩٧ هـ . لكن دمشق لم تفر بالشهرة الفائقة التي اكتسبتها في ميدان النشاط العلمي إلا منذ عهد السلطان نور الدين محمود الذي اتخذها عاصمة للملكة سنة ٥٤٩ هـ . ولعل السر في هذا أن المدة التي انقضت بين تأسيس أول مدرسة بدمشق واستيلاء نور الدين عليها ، حفلت بالنزاع المتصل بين أمراء المسلمين بالشام ، أو بينهم وبين الفرنج والصليبيين ؛ وهو النزاع المرير

(١) قام ابن جبير برحلات ثلاث من الأندلس إلى المشرق : الأولى سنة ٥٧٨ هـ ، وهي التي كتب بعدها « الرحلة » ، والثانية بين سنتي ٥٨٥ ، ٥٨٧ هـ ، وفي الثالثة استقر بالإسكندرية حيث توفي سنة ٦١٤ هـ .

(٢) يقول ابن جبير في « الرحلة » : « وبالجامع المكرم (يعني بدمشق) عدة زوايا يتخذها الطلبة للسمع والدرس والافتراء عن إزدحام الناس » . (الرحلة : ٢٦٦) ويقول : « ودهليز الباب الشمالي فيه زوايا على مصاطب من عاشر بلقي الصبيان » . (الرحلة : ٢٧١) . ويقول : « وفيه حلقات للتدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها إجراء واسع » . (الرحلة : ٢٧٣) .

الذي لم يدع فرصة لأى إصلاح علمي أو اجتماعي ، رغم توفر النية لدى بعض الأمراء .

والمدرسة كمرکز للنشاط العلمي السني تدين بوجودها لأسرة السلاجقة . ومن المسلم به أن المدرسة ظهرت في صور مختلفة قبل ظهور السلاجقة بزمان في منطقة خراسان ، وفي غيرها من الأقاليم الشرقية بصفة عامة (١) ، إلا أن أول من أنشأ المدرسة بنظامها الكامل الذي عرفت به في بلاد العراق والشام ومصر كان نظام الملك وزير السلاجقة المتوفى سنة ٤٨٥ هـ ، وهو مؤسس المدارس النظامية المعروفة (٢) . وقد ذكرنا من قبل أن أول مدرسة أنشئت في دمشق سنة ٤٩٧ هـ (٣) .

* * *

ولم يكن ظهور المدارس في مصر والشام بهذه الكثرة الملحوظة في العصر الذي تحدث عنه إلا مظهراً من مظاهر رد الفعل لندهور الدعاية الشيعية الاسماعيلية التي فقدت سيطرتها أولاً في بلاد الشام ، لانحسار سلطة الفاطميين عنها ، ثم انهارت أخيراً في مصر بعد سقوط خلافتها الفاطمية أمام جيوش الفتح النوري ، ثم ، من بعده ، بجهود صلاح الدين . والاستعراض التفصيلي للمواد التي كانت تدرس في هذه المدارس خير دليل على صحة هذه الدعوى التي ذهبنا إليها .

(١) يقول المقرئى : « لم تكن المدارس معروفة زمن الصحابة ولا التابعين ، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة » فأول من حفظ منه أنه بنى مدرسة أهل نيسابور ، فبليت بها البيهقية . المخطوط : ٢ : ٣٦٣ .

(٢) يقول المقرئى : « وأول مدرسة قرر بها للعلماء معالم هي النظامية ، وقد تم بناؤها سنة ٤٥٩ هـ . المخطوط : ٢ : ٣٦٣ .

(٣) وبليت أول مدرسة بحلب سنة ٥١٦ هـ ، وعلى حائطها تاريخ سنة ٥١٧ هـ ، وتسمى بالزجاجية . بنما بدر الدولة أبو الربيع سليمان بن عبد الجبار صاحب حلب عندئذ ، ولما أراد بناءها لم يمكنه أهلها أول الأمر لأن الغالب عليهم حينئذ كان التشيع . انظر الدور المتخبط لابن الشحنة .

ذلك أن مواد الدراسة في هذه الحقبة كانت تختلف من مدرسة إلى أخرى تبعاً لاختلاف أعمار الطلاب من جهة ولاختلاف المذاهب التي أنشئت من أجلها ، ولكنها مع هذا كانت تتفق جميعاً في أمر واحد هو تجنب الدراسة الفلسفية والمنطقية . ولعل ذلك يرجع إلى أن المذهب الشيعيّ الاسماعيليّ بصفة خاصة كان يعتمد في دعايته ، السرية والعلنية ، إلى جانب العاطفة الروحية ، على الجدل المنطقي وعلى الأسس الفلسفية والرياضية إلى حد كبير . وبهذا كانت المواد التي تدرس في معظم مدارس الشام ومصر في العصر الذي تتعرض له تتركز حول القرآن والحديث والمذاهب الفقهية الرئيسية الأربعة . وكان اختلاف هذه المذاهب في بعض المسائل الفرعية سبباً في تجميع هذه المسائل الخلافية في دراهات خاصة ، عرفت باسم « علم الخلاف » ، وقد برع فيها كثير من علماء هذا العصر وبخاصة من علماء الشافعية .

وفي « رحلة » ابن جبير ، وفي غيرها ، نجد حديثاً عن المدارس التي أنشئت للصبيان خاصة ، ويسمى ابن جبير أحياناً بالمبكاتب . وهدف هذه المدارس أن يحفظ بها الصبيان القرآن الكريم ، تلقيناً ، أما القراءة والكتابة فكانت تعلم للصبيان في دراسة الشعر والأدب التي كانت تعتبر في هذه المرحلة مواد مساعدة ؛ وإنما كان القرآن يعلم تلقيناً صيانة له عن التحريف ، والتصحيف . وكانت المساجد ، كما يقول ابن جبير ، مكاناً آخر لتعليم القرآن لهؤلاء الصبيان الذين كانوا يقدون إلى المساجد لهذا الغرض . وكان هؤلاء التلاميذ ، ولقرئهم مرتبات خاصة يستحقونها في مقابل تدريس القرآن ودراسته (١) .

(١) يقول ابن جبير : « وعند فراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحاً يستند كل إنسان منهم إلى سارية ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن . وللصبيان على قراءتهم جارية معلومة . وأهل القدرة من الآباء ينزهون أبناءهم عن أخذها » . ويقول « وتعليم القرآن للصبيان تلقين ويطؤون الخط في الأشعار ونحوها » . الرحلة : ٢٧٣ .

وكانت دراسة القراءات المختلفة للقرآن تأتي في المرحلة التالية من الأهمية بالنسبة لحفظه حتى إن كثيراً من العلماء اشتهروا بين رجال هذا العصر بإتقانهم لها . ومن هؤلاء علم الدين السخاوي (المتوفى سنة ٦٤٣) الذي اشتهر بها حتى كان الناس يتجمعون حوله ليقروا القرآن عليه بقراءته في المسجد وفي الطريق بينه وبين منزله بسفح جبل قاسيون ، فلا يصح لأحد منهم نوبة إلا بعد أمد طويل^(١) . وفي كتب التراجم التي تتحدث عن الشخصيات العلمية لهذا العصر كثير من أمثال الشيخ السخاوي .

ويجيء بعد القرآن وقراءاته علم الحديث ورجاله . وقد ظفر هذا العلم بمؤسسات خاصة أخذ كل منها اسم « دار الحديث » تميزا لها من بقية المدارس . وأول دار للحديث بدمشق أسست أيام السلطان نور الدين محمود ثم تبع من جاء بعده مثاله ، ومن هؤلاء صلاح الدين الأيوبي ، والملك الكامل محمد ، والملك الأشرف موسى والملك الصالح نجم الدين أيوب .

وبلى هاتين المادتين الرئيسيتين في الأهمية الدراسات الفقهية بمذاهبها الأربعة الرئيسية . أما قواعد اللغة العربية والدراسات الأدبية والتاريخية فلم تكن إلا من المواد المساعدة التي تمهد للدراسات الدينية العميقة التي تتمثل في دراسة القرآن وقراءاته والحديث ورجاله ثم في دراسة الفقه ومسائل الخلاف .

ومن بين المذاهب الفقهية الأربعة يحتل مذهب الشافعي مكان الصدارة ، وبخاصة في عصر الأيوبيين وذلك رغم أن نور الدين محمود ، الذي بدأ الاهتمام الجدي بالنشاط العلمي السني ، كان يعتنق مذهب الحنفية . وفي تتبعنا للنشاط العلمي الذي اتخذ طريقه من الشام إلى مصر في أواخر عهد نور الدين نجده يصطبغ بالصبغة الشافعية ، فقد عزل صلاح الدين قضاة الشيعة بعد سقوط دولة الفاطميين مباشرة وعين الشيخ صدر الدين عبد الله بن درباس

(١) وفيات الأعيان : ١ : ٤٣٤ - ٤٣٥ .

الشافعي في منصب قاض القضاة ، وعين هذا الشيخ بدوره نوابه في الأقسام الإدارية بمصر من رجال الفقه الشافعي^(١) . ثم لم يلبث صلاح الدين أن اتخذ خطوة أخرى في هذا الصدد عندما أسس مدرسة للشافعية بجوار قبة الإمام الشافعي وأتبعها بأخوات لها في جهات أخرى . ومن ثم لم يكن في الدولة الأيوبية بمصر كثير ذكر لمذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل^(٢) .

ومنذ بدأ الاهتمام في الشام بإنشاء المدارس في عهد نور الدين محمود أقبل أصحابه وأمراء جيشه على التنافس في إنشائها ، وتابعهم على ذلك أصحاب الشام ومصر ، ومن اتصل بهم ، في عصر الدولة الأيوبية . وكانت هذه المدارس موزعة بين المذاهب الأربعة الرئيسية وإن اختلف الإقبال عليها من مذهب إلى آخر ، فكان مذهب الشافعي في مرتبة الصدارة ، يليه مذهب أبي حنيفة ، ثم المذهب المالكي ، بينما كان لمذهب ابن حنبل المكانة الأخيرة إذ لم يقبل كثير من السلاطين أو الأمراء أو العلماء على تشجيعه بدرجة كافية ، بل كان بعضهم يقاوم انتشاره ونشاط غلبائه ويؤيد أتباع المدرسة الشافعية في معاداتهم له . ولعل السر في هذا أن رجال المذهب الحنبلي كانوا يحاولون في هذه الفترة النظرة إلى المسائل الشرعية نظرة تحليلية تحليلية ويردون شبهات المناظرين من المناطق بحجج جدلية مشابهة تمسها معهم في أسلوب مناظرتهم ، بينما كان الشافعية ، بزعامة إمامهم الأكبر ابن عساكر المحدث ، يلجئون إلى الحديث دائما ويشككون في عقيدة الحنابلة وفي مقاصدهم .

ولعل السر في تقدم الشافعية على الحنفية كذلك أن نور الدين الحنبلي المذهب وقف من المذاهب الأربعة موقفا محايدا وشجع العلماء جميعا على مواصلة جهودهم العلمية ، ووجه كثيرا من جهده وماله لدراسة الحديث

(١) يقول القريري : « فلم يستتب عنه في أقاليم مصر إلا من كان شافعي المذهب ، فظاهر الناس من حيثئذ بمذهب الشافعي ومالك » . الخطط : ٢ : ٣٤٣ .

(٢) الخطط : ٢ : ٣٤٣ .

خاصة فأنشأ له مدرسة خاصة عرفت باسم دار الحديث النورية ، كما قدم ابن عساكر المحدث الشافعي الكبير في مجلسه على سائر الأئمة والعلماء حتى كان ابن عساكر يضرب المثل بجلال مجلس نور الدين ووقاره وتعظيمه للعلم والعلماء . ثم جاء بعد نور الدين خلفاؤه الذين حكموا مصر والشام باسم الأئمة الأيوبيين ومعظمهم من الشافعية المتعصبين لمذهبهم ؛ وفي مقدمة هؤلاء صلاح الدين الأيوبي ، وأخوه الملك العادل سيف الدين ، ثم الملك الكامل موسى بن الملك العادل . وبما يدل على موقف الأيوبيين من الشافعية تأييدا ومناصرة أن أحد علماء الحنفية كتب كتابا في الفقه سماه . « النوري في شرح القُدوري » ، وتعرض فيه لبعض رجال الحديث من الشافعية ، وبلغ خبر الكتاب صلاح الدين فاستدعى مؤلفه يوم الجمعة في مسجد دمشق وطلب منه كتابه وأمر « بغسله » في ميضأة المسجد^(١) . ودليل آخر أن المعظم عيسى صاحب دمشق ، ابن الملك العادل ، اعتنق المذهب الحنفي واهتم بدراسته والتخصص فيه ، فبلغ أمره والده الذي حاول أن يسترده إلى مذهب الشافعي ، فغضب المعظم وكأه أباه ومن حضر مجلسه من العلماء بلمجة يتحدث أبو المحاسن ، صاحب النجوم الزاهرة ، عنها « بأن السكوت عن ذكرها أليق^(٢) » ، وذكر مؤلف « شفاء القلوب » أن بما قاله المعظم لأبيه حيثئذ . « أما ترضون أن يكون فيكم واحد مسلم » .

وبما يدل على أن مذهب ابن جنبل كان لا يجد تعظيما كافيا من الحكوميين أو من العلماء أن أبا شامة مدح أستاذه زين الأئمة ابن عساكر بأنه « كان لا يمرّ قرب صفوف الحنابلة حتى لا يأموا بسببهم له » . ويعلل أبو شامة هذا صراحة بالبغض العنيف الذي يكنه الحنابلة للشافعية ذلك البغض الذي كان متبادلا بين الفريقين ، حتى إن زكي الدين بن راحة أنشأ

(١) مؤلف هذا الكتاب الشيخ ابن أبي العيش . انظر البستان الجامع لتواريخ الزمان

في حوادث سنة ٥٧٨ هـ .

(٢) النجوم الزاهرة : ٦ : ٢١١ .

مدرستين في حلب ودمشق وأباح الدراسة فيهما لكل من رغب الاستزادة في العلم على « ألا يدخلهما مسيحي أو يهودي أو حنبلي »^(٣) .

ولكن سيطرة الشافعية والحنفية على الحياة العلمية لم يمنعنا تطور مذهبي المالكية والحنبلية ، بل شجعتهما هذه السيطرة على المناضلة لمحاولة التقدم والرقى ، فنجحوا إلى حد كبير ، وأمكنهما بذلك تقنين بعض قواعد الفقه الإسلامى المتعلقة بنظم الحكم السياسية فيما بعد ، وبخاصة جهود الفقيه والمصلح الاجتماعى الإمام ابن تيمية^(٤) .

وكان لدراسة الطب في هذه المرحلة نصيب ملحوظ فكان الطلاب ينقلون دروسه النظرية ويقومون بتمريناتهم العملية في البيمارستانات حيث كان المرضى يعالجون من غير أجر وكان البيمارستان النورى بدمشق في مقدمة هذه المؤسسات الصحية العلمية نشاطا في هذه الحقبة ، ومن بعده بيمارستان صرخد ، ثم بيمارستان القاهرة . ومن أظهر أطباء هذا العصر ابن أبى أصيبعة الذى تلقى دراسته العلمية في صرخد والقاهرة وترك كتابا خاصا في طبقات الأطباء سماه « عيون الأنباء » .

ويمكن أن نقول إن هذا النشاط العلمى يدين بوجوده لعوامل ثلاثة متعاونة ، أولها كثرة المدارس وتنوعها ، وثانيها الهيئة الحاكمة من سلاطين وأمراء ، وأتباع للأمراء أو السلاطين ، وسيدات الأسر الحاكمة ، وثالثها جماعة العلماء .

وقد تحدثنا من قبل عن العامل الأول .

(٣) المفدى : الوافى بالوفيات .

(٤) انظر :

Laoust (H.): Essai sur les Doctrines Sociales et Politique de Taki-ad-din Ahmad b. Taimiya, Paris, 1939.

أما عن العامل الثاني فإننا نجد أن رجال الحكم والسلطة ومن اتصل بهم، كانوا يتنافسون في إنشاء المدارس، وبعضهم كان يبادر إلى هذا فور توليه منصبه الجديد، يجعله عربونا لدى قومه على حسن السياسة التي سيتبعها في إدارة شئونهم ورعاية صوالمهم. ولسيّدات هذا العصر فضل كبير في تأسيس الكثير من المدارس، ونذكر منهم، على سبيل المثال، الخاتون عصمة الدّين زوجة السلطان نور الدّين محمود ثم، من بعده، زوجة السلطان صلاح الدّين يوسف بن أيّوب، فقد أنشأت مدرسة نفخة في دمشق عرفت باسم المدرسة العصميّة. ومن أتباع السلاطين نذكر قايماز صارم الدّين، أحد ممالك السلطان صلاح الدين، الذي أنشأ مدرسة باسمه بجوار منزله، كما أنشأ عدة ربط للصوفيّة في دمشق وفي غيرها من مدن الشام. ومن العلماء نذكر القاضي شرف الدين بن أبي عصرون الذي أنشأ مدرسة باسمه تواجه منزله بدمشق أيضا، والقاضي الفاضل عبد الرحيم اليبسّاني الذي أنشأ مدرسة في القاهرة للشافعية والمالكية وألحق بها مكتبة بلغت عدة كتبها مائة ألف كتاب.

وفي كتاب الدّارس في تاريخ المدارس للتّحيمي، وفي كتب التراجم كذلك، أمثلة لا تحصى للتدليل على هذه القضية.

ولم يقتصر اهتمام الهيئة الحاكمة، ومن اتصل بها، بحركة الإحياء العلمي على مجرد إنشاء المدارس وإنما كانوا يتخيرون لهذه المدارس أفضل الأساتذة وأتقاهم وأكثرهم قبولا لدى المتعلمين عامة، بل كانت بعض المدارس تنشأ خاصة لعالم بعينه اشتهر بعلمه أو بمكاته بين الناس. فقد أنشأ ناصر الدين القيمري مدرسة خاصة للأستاذ علي بن محمود الكردي، وقرر عند إنشائها أن يتولى شئونها بعد وفاة الشيخ الكردي أولاده وذريته. ومن قبل أنشأ السلطان نور الدّين محمود دار الحديث النورية للحافظ أبي القاسم هبة الله بن عساكر الكبير محدث دمشق (الذي توفي سنة ٥٧١ هـ).

وإنشاء مدرسة ما كان يعنى فى نفس الوقت تخصيص أوقاف بعينها
بصرف إرادها فى إدارة هذه المدرسة وفى دفع مرتبات المدرسين والمعيدى
وفى حاجات الطلاب الذين كانوا فى أغلب الأحيان يقيمون بالمدرسة ويتغذون
فيها ويحصلون منها على أدوات الكتابة والدرس ، بل كان من بين العلماء
والطلبة من يتزوج ويقيم مع زوجته وأسرته فى المدرسة التى التحق بها مدرسا
أو طالبا . وما يدل على وفرة الأوقاف المخصصة للمدارس ، ما ذكره ابن
جبير فى « الرحلة » عن مدينة دمشق التى استغرقت الأوقاف معظم أسواقها
ومنشآتها ، وتوزعتها المساجد والمدارس والربط . وفى وصفه لإحدى
المدارس الحنفية بحلب يقول : « ويتصل به (بجامع قلعة حلب) من الجانب
الغربي مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسنا وإتقان صناعة ، فيها فى الحسن
روضة تجاور أخرى ؛ وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس
بناء وغرابة صناعة . ومن أطرف ما يلاحظ فيها أن جدارها القبلى مُفْتَسَح
كله بيوتا وغرفا لها طيقتان يتصل بعضها ببعض ، وقد امتد بطول الجدار
عريش كرم مشرع عنباً ، فصل لكل من تلك الطيقتان قسطها من ذلك
العنب متديلاً أمامها ، فيمّد الساكن فيها يده ، ويحتنيه متكئاً دون كلفة
ولا مشقة^(١) . »

ولم يقتصر مورد هذه المدارس على الأوقاف الكثيرة التى كانت تخصص
لها ، بل كان للعلماء إقطاعات خاصة يمنحها لهم الأمراء ومرتبات تصرف لهم
من خزانة الدولة . ويذكر القاضى الفاضل فى إحدى رسائله إلى السلطان
صلاح الدين الأيوبي . « أن أرزاق أرباب العلم فى دولته ، إقطاعاً وراتباً ،
يتجاوز ما تى ألف دينار ، وربما وصل ثلثائة ألف شهادة لله^(٢) . »

ومن مظاهر اهتمام الهيئة الحاكمة بالنشاط العلمى ما نقرؤه من أن
السلطان أنفسهم كانوا يهتمون بالأخذ بنصيب من الثقافة بالقدر الذى

(١) الرحلة : ٢٥٣ .

(٢) هيون الروضتين لأبى شامة . مخطوط بالمتحف البريطانى .

ممكنهم منه ظروفهم ، فكان صلاح الدين يتلقى دروس الحديث من القاضي بهاء الدين بن شدّاد ، حتى وهو في ميدان القتال ، كما حاول أن يحفظ القرآن الكريم عندما وجد فسحة من الوقت ، وبدأ هذا فعلا ، ولكننا لا نعلم مقدار نجاح هذه المحاولة ؛ وفي الإسكندرية اعتاد أن يحضر دروس الحافظ السلّفي مع من يصحبه من أولاده ورجال دولته . واهتم العادل سيف الدين بثقافة أولاده حتى قيل إن ابنه الكامل استطاع أن يحصل على إجازات علمية كثيرة من علماء عصره عن جدارة واستحقاق^(١) . كما قيل إنه استطاع أن يعلق على صحيح مسلم عليا « بكلام مليح »^(٢) . . والكامل هذا هو الذي اعتاد أن يعقد ندوة علمية دورية مساء كل خميس يتناظر فيها العلماء ويتجادلون ويشاركونهم الكامل في جدلهم ومناظراتهم^(٣) . أما المعظم عيسى صاحب دمشق ، وشقيق الملك الكامل ، فقد درس الفقه على مذهب أبي حنيفة في عناية وعمق ، وقد سبق أن ذكرنا رده على والده الملك العادل حينما حاول أن يصرفه إلى دراسة الفقه الشافعي . ويذكر سبط ابن الجوزي أن المعظم هذا اختار مجموعة من العلماء وكاتفهم بدراسة مسائل الفقه الحنفي لإفراد القضايا التي اختص بها الإمام أبو حنيفة وتلك التي تنسب إلى كل من صاحبيه محمد وأبي يوسف ، وكانت نتيجة هذه المحاولة كتابا جديدا في الفقه الحنفي ، سمي التذكرة ، في عشر مجلدات . فدرس المعظم هذا الكتاب بعناية ، وكتب بخط يده على كل مجلد منه عبارة تدل على أنه حفظ ما فيه جميعه . فلفت هذا نظر سبط ابن الجوزي فقال للمعظم : « إن أعظم العلماء حفظا لا يستطيع أن يدعي أنه حفظ أكثر من كتاب القدوري ، وأنت تذكر أنك حفظت كتاب التذكرة جميعه !! إنني أخشى أن يؤخذ هذا عليك . فتحداه المعظم عيسى أن يجمع له من أراد من العلماء ليختبروا حفظه لهذا الكتاب وقال : إن الألفاظ لا تهتم ، وإنما الذي يهم هو ما تعنيه هذه

(١) النجوم الزاهرة : ٦ : ٢٢٨ .

(٢) النجوم الزاهرة : ٦ : ٢٢٧ .

(٣) قس المصدر : ٦ : ٢٣٢ .

الأنماط^(١) . واهتم المعظم كذلك بقواعد اللغة العربية لحفظ كتاب
 «المفصل» ، للزمخشري ؛ وكان يشجع على الحفظ والدراسة بما يقدمه من
 مكافآت مالية فمن ذلك قوله : « من حفظ الجامع الكبير للكرمانى أعطيته
 مائة دينار ، ومن حفظ الإقصاص لأبي علي في النحو أعطيته مائتين » . فحفظهما
 جماعة ووفى لهم^(٢) . وعندما كتب سبط ابن الجوزى ترجمة المعظم عيسى
 في حوادث سنة ٦٢٤ قال : « وفى هذه السنة ظهرت وفاة المعظم عيسى
 الملك الفقيه النحوى اللغوى الخ » .

ولأمراء الأيوبيين نشاط آخر فى ميدان المعرفة ذلكم هو التأليف
 والتصنيف . فقد كتب المعظم عيسى كتابا فى الفقه الحنفى ، كما نظم مجموعة
 قيمة من الأشعار جمعها فى ديوان خاص . وألف الناصر داود كتابه
 « الفوائد الحلبية فى الفرائد الناصرية » ، وخصص فيه فصلا تحدث فيه عن أصل
 الأسرة الأيوبية . وينقسم هذا الكتاب قسمين : أولها يشمل الرسائل
 والمكاتبات التى وجهها الناصر داود إلى بعض الشخصيات الرسمية وغيرها ،
 وثانيهما يحتوى الأشعار التى أنشأها مؤلفه فى عشرة أبواب^(٣) . وكتب
 المنصور محمد صاحب حماة كتابا عن تاريخ حماة والشخصيات التى زارتها
 أو استقرت فيها ، ويقع هذا الكتاب فى جزئين ، وقد سماه صاحبه :
 « المختار فى التواريخ »^(٤) .

وهكذا نجد أمراء الأيوبيين يسهمون فى حركة الإحياء العلمى بطريق
 مباشرة بالتأليف والدراسة إلى جانب ما ذكرناه من قبل من مظاهر اهتمامهم
 بهذه النهضة .

(١) مختصر مرآة الزمان : ٤٧٦ — ٤٧٧ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) وهو مخطوط بالمتحف البريطانى برقم 3027 Brit. Mus. .

(٤) أبو شامة : المذيل على الروضتين : ١٧٤ ، سبط ابن الجوزى : مختصر المرآة :

٤٠٩ — ٤٠٢ .

ويتمثل العامل الثالث الذي يرجع إليه الفضل في هذه الحركة الإحيائية للعلوم ، في جماعة العلماء . وطبعي أن تؤدي هذه الجهود العظيمة التي قامت بها الهيئة الحاكمة ومن اتصل بها في إنشاء المدارس ، وتخصيص الأكاويف الغنية للإنفاق عليها ، والاهتمام بتشجيع الدراسات بوسائل مختلفة ، وثقيف أمراء الأسرة الحاكمة ، والمساهمة في حركة التأليف — طبعي أن تؤدي هذا كله إلى تكوين هيئة ضخمة من العلماء والأساتذة لسد حاجة المدارس المتزايدة إلى المدرسين والمثقفين . وطبعي كذلك أن تؤدي هذه الحركة التثقيفية الواسعة إلى تخرج عدد كبير من هؤلاء العلماء . ويتبين ضخامة عدد هذه الهيئة التعليمية من عبارة ذكرها العباد السكاتب في مناسبة معينة عن مدينة دمشق عندما قال : « إن الصنفي فرق في أساتذة المدينة ستمائة دينار ، فخص كل عالم دينار واحد ^(١) » .

والواقع أن كتب التراجم التي تعرض للحقبة التاريخية التي تحدث عنها تدلنا على أن هذا العصر كان حافلا بالشخصيات العلمية العظيمة . وتبين الدراسة الدقيقة لهذا العصر أن الظروف التي سيطرت على جوه العام جعلت أساس الحكم فيه مستنداً إلى دعائمين قويتين متعاوتين ، وإن اختلفت طبيعة كل منهما عن الأخرى ، إحداهما : طبقة أمراء الإقطاع ، وفيهم تركز النشاط الحربي وإدارة معظم شئون الإقطاعات والولايات المحلية في ضوء السياسة العامة للدولة ، وكانوا يعدّون الخزانة العامة بما يفرض عليهم من أموال ؛ وثانيتها طبقة العلماء ، وهؤلاء لم يكونوا أقل أهمية للدولة من أمراء الإقطاع ، ذلك أنهم بنفوذهم المباشر على العامة وبثقة الرأي العام فيهم وتقديره لهم كانوا يستطيعون تعبئة القوى وتجميع الصفوف لتأييد الدولة أو لمناهضة الأمراء الذين ينحرفون عن الطريق السوي في إدارة شئون إمارتهم . ولم يقتصر أثرهم في استقرار الأمور أو في اضطرابها على تأثيرهم في الرأي العام ، وإنما كان لبعض الشخصيات القوية

(١) الفتح القدسي ، ٤٨١ — ٤٨٢ .

منهم أثر مباشر في قوة الدولة أو في الحد من جبروت السلاطين وطغيان
الأمراء . فهذا هو القاضي عيسى الهكاري يصحب جيوش أسد الدين
شيركوه ، قائد نور الدين إلى مصر ، ويبقى فيها بعد تمام الفتح . وعند وفاة
شيركوه ، الذي شغل منصب الوزارة للفاطميين نحو شهرين ، وقع
الاختيار على ابن أخيه صلاح الدين ليتولى الوزارة بعده ، كما تقرر أن يقود
جيوش نور الدين بمصر ؛ فغضب كثير من قواد الجيش وأمرائه الذين
كانوا أسن من صلاح الدين وأقدم منه صلة بنور الدين ، وفي هؤلاء الثأرين
شهاب الدين الحارمي خال الوزير الجديد ؛ فتقدم القاضي الهكاري لعلاج
الموقف بحكمة وسياسة ، ونجح في جمع الكلمة حول صلاح الدين فتولى
المنصبين جميعاً ، واكتفى من بقي على معارضته لصلاح الدين بالعودة إلى
الشام . وواصل الهكاري بعد ذلك جهوده لخدمة صلاح الدين وصحبه
في إدارة شئون مصر وصحبه في المعارك حتى مات في مخيمه قريباً من قلعة
الخرسوبة ، المطلة على سواحل عكا ، سنة ٥٨٥ هـ . ومن علماء الشام كان
الإمام الفندلاوي يتقدم صفوف القتال ضد الصليبيين ومات في ميدان
المعركة . وكان الشيخ عبد الله اليونيني الحنبلي يخرج للحرب مع المجاهدين
بقوسه الذي يزن ثمانين رطلاً ، ويقول المترجمون لحياته إنه لم يتخلف
عن معركة واحدة .

وفي الميدان الإداري قام العلماء بنصيب كبير لخدمة الدولة . فها نحن
أولاء نجد القاضي القاضل وعماد الدين الأصفهاني وبهاء الدين يوسف بن
شداد يسوسون البلاد لصلاح الدين الأيوبي ويتولون أهم المناصب الحكومية
في عهده ، حتى كان القاضي يده اليمنى في ميادين السياسة والحرب والاقتصاد
والإدارة ، بل كان مستشاره الأول في شئونه العائلية الخاصة . وابن الأثير
الجزري كذلك يتولى الوزارة للملك الأفضل ، ابن صلاح الدين ، صاحب
دمشق ؛ وصفي الدين بن شكر يتولاها للملك العادل ولابنه الملك الكامل
كذلك . وفي مناسبة معينة يقرر نور الدين محمود إنشاء مسجد كبير في حلب

فيعهد بالإشراف على عمارته وبالإيفاق عليه من خزانة السلطان إلى الشيخ عمر الملا . ويعترض فريق من رجال نور الدين ، من المدنيين والعسكريين ، على هذا الاختيار ، فالشيخ ميدانه الذي لا ينازعه فيه أحد وهو ميدان العلم والقيادة الدينية ، أما الإشراف على العمارة والصرف فليس من اختصاصه ولا هو في طاقته ؛ فيرد نور الدين اعتراضهم بأن الشيخ يخاف الله ولهذا فإن نقود المسجد لديه في أمان وحسن رعاية ، لن يلحقها اختلاس أو انتقاص .

وهكذا نجد العلماء لا يقصرون جهودهم على ميادين العلم وإنما يؤكدون نفوذهم في الإدارة وفي السياسة وفي الحرب بقوة شخصيتهم وقيادتهم الموجهة للرأي العام . وقد توصل « لاوست » بدراسته لموقفهم هذا إلى أن نفوذهم كان يتزايد بالتدريج في عصر الأيوبيين فهد هذا لسيطرتهم المتحركة أيام المماليك ، ومن مظاهر سيطرتهم عندئذ أن كل رسالة سياسية إلى الفرنج أو إلى بركة خان كانت تشمل واحدا من العلماء على الأقل . ويذكر « لاوست » كذلك أن ابن تيمية أحس بخطورة هذا الموقف فحاول بدراسته الإصلاحية الاجتماعية أن يخلص الإدارة الحكومية من الأُمراء المتجبرين ومن العلماء الذين شاركوهم في هذه الأرستقراطية الحكومية وأن يخضع الجميع للقانون الإسلامي الاجتماعي الذي يصبح العلماء في ظله في مكانة المرشدين فقط (١) .

على أن انصراف كثير من العلماء ، في هذا العصر ، إلى شئون الإدارة لم يصرفهم ، وغيرهم من بقية العلماء عن ميدان المعرفة الذي تخصصوا فيه بل إنهم كانوا يستغلونه أحيانا لإصلاح شئون الدولة والحكم بطريق مباشرة تارة وبغير ذلك تارات أخرى . فقد ألف ابن شداد كتابه « فضائل الجهاد » للسلطان صلاح الدين الأيوبي ، وجمع فيه الأحاديث التي تحت على الحرب وجهاد الكفار ، يشجعه بذلك على موصلة حربه ضد الصليبيين حتى ينبج

Laoust (H.), Essai sur les Doctrines Sociale et Politique (١)
de Taki - d - din Ahmad b. Talmiya, Paris, 1939.

في طردهم نهائياً من بلاد الشام . وألف ابن الأثير ، صاحب الكامل ، كتابه « تاريخ أتابكة الموصل » وأهداه إلى السلطان الصغير القاهر مسعود صاحب الموصل تذكيراً له بالأجداد التي كانت لآبائه أمراء الموصل ، وحثاً له على أن يعمل على سلوك سبيلهم . وألف أبو شامة « كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية » تمجيداً لنور الدين وصلاح الدين ، وتوجيهاً لأمراء عصره الذين فشا بينهم الخلف والشقاق ، حتى يقتدوا بسيرتهما ويعرضوا عما هم فيه من حروب ومنازعات فرقت كلمتهم وأطمعت أعداءهم وإنما خص أبو شامة نور الدين وصلاح الدين بالتأليف لأنهما « في المتأخرين كالعمرين رضي الله عنهما في المتقدمين » فأفردهما في كتاب « لعله يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك السلوك فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين ، ومن حذا حذوهم من الأئمة السابقين ، ويقولون : نحن في الزمن الأخير ، وما لأولئك من نظير . فكان لما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم بمن هو في عصرهم ، من بعض ملوك دهرهم^(١) .

وكان لبعض العلماء نفوذ شخصي لدى السلاطين والأمراء . ويكفي هنا أن نذكر من الأمثلة الشيخ سبط ابن الجوزي فقد نجح في حث الملك الأشرف موسى على حمل السلاح والتقدم بجيوشه إلى مصر لمساعدة صاحبها أخيه الملك الكامل ضد الصليبيين الذين هاجموا دمياط واستقروا بها سنة ٦١٨ هـ ؛ وكان المعظم عيسى صاحب دمشق وشقيق الملكين قد فشل في جمع قوى هذين الملكين من قبل . أما الملك الأجدد الأيوبي صاحب بعلبك فكان يزور الشيخ عبد الله اليوناني الذي لم يكن يحفل باستقباله ولم يقيم أبداً لتحيته ، بل كثيراً ما لومه على مظالمه وكان الأجدد يعتذر إليه ويعدّه بالاصلاح . وقد نجح الشيخ اليوناني هذا في دعايته ضد القراطيس السود العادلية التي طرحت للتداول بدلا من الدراهم والدنانير فبطل العمل

(١) كتاب الروضتين : ١ : ٥ . نشر وتحقيق دكتور محمد حلمي محمد أحمد ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة — ١٩٥٦ .

بها^(١) . وكان المعظم عيسى صاحب دمشق يمشى من القلعة راجلاً إلى دروس الإمام تاج الدين أبو اليمن الكسندى تكريماً له ولعلمه ، وحدث أن دخل مرة على التاج ، فسكت الحاضرون ، فقال التاج : إنما سكتوا لأجل السلطان ولم يفرغوا من حزينهم . فقال المعظم : لا والله ؛ إنما القراءة بالنسوبة فليتموا . أما الشيخ عز الدين بن عبد السلام فقد نغم على الصالح اسماعيل ، صاحب دمشق ، لاستعانتة بالفرنج ضد منافسيه من أمراء الأيوبيين حتى إنه قدم لمدينة صيدا عربوناً لصداقته . فأسقط العز اسم الصالح اسماعيل من الخطبة يوم الجمعة ، وأيده في هذه الخطوة الشيخ جمال الدين بن الحاجب إمام المالكية . ثم لم يلبث عز الدين أن خرج عن دمشق إلى مصر فأقام بها حتى توفي سنة ٦٦٠ . وعند وفاته قال الظاهر بيبرس ، صاحبها : « اليوم استقر ملكي لي ؛ فلو أمر عز الدين في شأنى الناس بما أراد لأطاعوه مبادرين » .

وكان للنساء نصيب في النشاط العلمى في هذا العصر أشرنا إلى بعضه فيما تقدم عندما ذكرنا أنهن كن ينشئن المدارس الخاصة للصبيان ولدراسة الحديث وللمذاهب الفقهية المختلفة . ونود هنا أن نذكر أنه ظهر من بين السيدات من اشتهرت بالتفوق في فن معين من فنون المعرفة فها هي ذى شهدة الكاتبة تكتسب شهرة فائقة لتخصصها في دراسة الحديث وعلومه حتى أصبحت تعد من كبار رواة وحفاظه ؛ وتلك أخرى اسمها ست الكتبة نعمة بنت علي اهتمت بدراسة الحديث كذلك وتخصصت منه في كتاب الشئائل للترمذى .

* * *

وفي الحديث عن مواد الدراسة ذكرنا أنها تركزت حول العلوم الدينية طبقاً للمذهب السنى أما الدراسات اللغوية والعربية فكانت تعتبر مساعدة

(١) المفيد على الروضتين : ١٢٥ .

على تفهم العلوم الدينية ، ودراسة الأخبار أو التاريخ لم تكن أكثر من مادة ثقافية تكميلية ، ومع هذا فقد التمس دارسوها لها صلة قريبة أو بعيدة بالدراسات الدينية ، فهذا أبو شامة صاحب الروضتين قد أقبل على دراسة التاريخ في مرحلة متأخرة من حياته الدراسية بعد أن قضى جل عمره في اقتباس الفرائد الدينية . وهو إنما قرر أن يصرف إلى التاريخ بعض وقته ، ليجوز بذلك سنة العلم وفرضه ، اقتداء بسيرة من مضى من كل عالم مرتضى ، .

أما المنهج التفصيلي للدراسة فكان يختلف بالنسبة لأعمار الدارسين . فصغار الطلاب أو المبتدئون كانوا يحفظون القرآن ويدرسون قراءاته المختلفة . ويتعلمون الشعر وأيام العرب وأخبارهم مستعينين بها على تعلم الكتابة ، ذلك لأنهم كانوا يحفظون القرآن تلقيناً صيانة لكلام الله عن التصحيف والتحريف على يد هؤلاء الصبيان الصغار . وطريقة الإملاء والاستماع في بقية المواد كانت مفضلة على طريقة النقل في هذه الحقبة ، وبخاصة في دراسة الحديث ، ذلك أن طريقة النقل والنسخ كانت تؤدي أيضاً إلى التصحيف والتحريف . وفي ذلك يقول ابن عساكر ، محدث دمشق الأكبر ، مفضلاً طريقة الإملاء :

ألا إن الحديث أجلّ علم	وأشرفه الأحاديث العوالي
وأنفع كل يوم منه عندي	وأحسنه الفوائد والأمال
وإنك لن ترى للعلم شيئاً	يحققه كآفواه الرجال
فكن يا صاح ذا حرص عليه	وخذه من الرجال بلا ملال
ولا تأخذه من صحف فترى	من التصحيف بالداء العضال

ولهذا نجد معظم الإجازات العلمية التي كانت تمنح للطلبة من أساتذتهم مصدرها بعبارة : سمع مني ، أو قرأ عليّ ، أو نحو ذلك .

أما كبار الطلاب فقد رأينا أن العلم يُسرّ لهم في دور الحديث وفي

المدارس المختلفة بعد الفراغ من حفظ القرآن ودراسة قراءاته ، لكنهم لم يكونوا يقيدون بمنهج معين يتبعونه في دراساتهم بعد اجتياز هذه المرحلة الأولى ، بل كانوا يختارون من المواد ما يناسبهم ومن الكتب ما يرغبون فيه وهم في هذا الاختيار تأثروا إلى حد كبير بواحد من اثنين : أولها شخصية من الشخصيات البارزة في الميدان العلمي ، تميزت بتقواها وصلاحها وبعلمها الغزير وبتمكنها من المادة التي تخصصت فيها أو في الكتاب الذي تعرضت لدرسه وشرحه ؛ وثانيها وفرة الأوقاف المخصصة لطلاب العلم في مدرسة بعينها . ومعنى هذا أن الطالب كان لا يهتم ، إلا في حالات قليلة ، باختيار علم بذاته ليتخصص في دراسته لشغفه به أو لرغبته الخاصة في الوقوف على أسرارهِ . ولهذا أيضاً وجدنا العلماء في هذه الحقبة يجمعون أنواعاً مختلفة من الثقافة والمعرفة لا يتخصصون في فن بعينه كما يتبين من كتب التراجم المختلفة .

لكنّ هذا لا يعني أن التخصص العلمي قد انقطع تماماً ، إذ أننا لا زلنا نجد من بين العلماء حينئذ بعض المتخصصين المبرزين ، ومنهم ابن عساكر الكبير الحافظ هبة الله محدث دمشق ، وتخصّصه دراسات الحديث ، وإن كان قد برع في فقه الشافعي وكتب التاريخ . وعلم الدين السخاوي في القراءات ، وزين الأمانة ابن عساكر في فقه الشافعية ؛ وعبد الله اليونيني في فقه الحنابلة ، وأبو اليمن تاج الدين الكندي في علوم العربية .

ومن هؤلاء المتخصصين من اشتهر بإتقانه تدريس كتاب بعينه ، وهو نوع من المبالغة في التخصص . ومن أمثلة هؤلاء علم الدين السخاوي المقرئ الذي تخصص في قصيدة الشاطبي فشرحها ، ثم جاء أبو شامة الذي تلبذ على السخاوي فزاد هذه القصيدة شرحاً بعد أن لزم صحبة السخاوي زمناً طويلاً . ومنهم كذلك ست الكتبة نعمة بنت علي التي تخصصت في كتاب الشمائل للترمذي ، وأبو اليمن تاج الدين الكندي الذي تخصص في كتاب المفصل للزنجشري .

ولعل السر في قلة الانصراف إلى التخصص العلى بصورة ملحوظة في هذا العصر الذى نتحدث عنه أن الحركة العلمية بدأت ، واستمرت مدة طويلة ، قوية مندفعة متحمسة لمقاومة الدراسات الفلسفية والمنطقية التى كانت وسائل الدعاية الشيعية ، والاسماعيلية خاصة ، واستندت هذه الحركة القوية إلى الدراسات النقلية التى تعتمد على القرآن والحديث وعلى آراء أئمة الفقه القدامى الذين وضعوا أسس الدراسة السنية . ومن وراء هذه الحركة الأمراء والحكام ومن اتصل بهم يتنافسون فى إنشاء المدارس وفى تخصيص الأوقاف العظيمة الدخل للإنفاق على هذه المدارس وفى تقريب العلماء واستشارتهم فى شئون الدولة وإدارة وسياسة وحربا واقتصادا .

محمد على محمد أحمد